رسالة اليوم العالمي للمسرح ٢٠١٨ – أوروبا

سايمون ماكبرني ، المملكة المتحدة

ممثل وكاتب ومخرج مسرحي والمؤسس الشريك لمسرح كومبليسيت

على بُعد نصف ميلٍ من الساحل القيرواني في شمال ليبيا يوجد مأوىً صخريٌّ شاسع يبلغ عرضه ٨٠ متراً وارتفاعه ٢٠ متراً، ويطلق على هذا الكهف في اللهجة المحلية اسم "هوا فطيح". في عام ١٩٥١م أظهر تحليل الكربون الذي يستخدم لتحديد عمر الآثار أن الإنسان استوطن هذا الكهف لفترةٍ زمنيةٍ مستمرةٍ لا تقل عن ١٠٠,٠٠٠عام، ومن بين القطع الأثرية التي تم اكتشافها كان هناك مزمارٌ مصنوعٌ من العظمٌ يعود تاريخه إلى ما بين ٤٠ و ٧٠ ألف عام.

كصبيٍّ عندما سمعت بهذا سألت والدي:

"هل كان لديهم موسيقى؟"

ابتسم لي وقال:

"حالهم كحال كافة المجتمعات البشرية."

كان والدي أمريكي المولد وعالماً في آثار ما قبل التاريخ، وكان أول من حفر "هوا فطيح" في برقة.

إنه لشرفٌ عظيمٌ لي أن أمثل قارة أوروبا في كتابة رسالة اليوم العالمي للمسرح هذا العام.

في عام ١٩٦٣م ، قال سَلَفي في كتابة رسالة اليوم العالمي للمسرح، الكاتب والروائي والمسرحي الكبير آرثر ميلر في الوقت الذي كان تهديد الحرب النووية يثقل كاهل العالم: "في هذا الوقت الذي أصبحت فيه أسلحة الدبلوماسية والسياسة قصيرةً وضعيفةً للغاية، فإن على الفن بامتداده الرقيق ولكن الطويل المدى أحياناً أن يتحمل عبء تماسك وترابط المجتمع البشري".

تم اشتقاق كلمة دراما من الكلمة اليونانية "dran" وتعني "العمل"، بينما تنبع كلمة "المسرح" باللغة الإنجليزية من الكلمة اليونانية "Theatron"، ومعناها الحرفي هو "مكان الرؤية"، مكانٌ لا ننظر فيه وحسب، بل نرى وندرك ونفهم. قبل ٢٤٠٠ عام، صمم بوليكليتوس مسرح إبيداوروس الكبير والذي يتسع لـ ١٤,٠٠٠ مشاهد ويعتبر معجزةً في الهندسة المعمارية بسبب خصائصه الصوتية المذهلة في الهواء الطلق، حيث يمكن أن يسمع صوت عود ثقابٍ يتم إشعاله في منتصف خشبة المسرح في كافة المقاعد البالغ عددها ١٤,٠٠٠ مقعداً، وكما هي العادة في المسارح الإغريقية عندما تنظرون إلى الممثلين يمكنكم أيضا رؤية ما ورائهم من المناظر الطبيعية، فلم يقتصر الأمر على تجميع عدة أماكنٍ في الوقت نفسه: المجتمع والمسرح والعالم الطبيعي، بل استحضر أيضاً كافة الأزمنة في ذات اللحظة، وبما أن المسرحية تستحضر الأساطير الماضية في الوقت الحالي، يمكنكم النظر إلى المسرح ورؤية ما سيؤول إليه مستقبلكم النهائي: الطبيعة.

إن أحد أهم الاكتشافات المرتبطة بإعادة إعمار مسرح غلوب الشيكسبيري في لندن تتعلق أيضاً بما يمكنكم رؤيته، فهذا الاكتشاف متعلقٌ بالضوء، حيث يتم إضاءة خشبة المسرح والقاعة بالتساوي، فيمكن للفنانين والجمهور رؤية بعضهم البعض، فترى الأشخاص في كل مكان تنظر

إليه وفي كل وقت، وأحد النتائج المترتبة على ذلك هو تذكيرنا بأن المناجاة الرائعة، على سبيل المثال، لهاملت أو ماكبث لم تكن مجرد تأملات خاصة، بل مناظراتٍ عامة.

نحن نعيش في وقتٍ تصعب فيه الرؤية بوضوح، إننا محاطون بالخيال أكثر من أي وقت مضى في التاريخ أو ما قبل التاريخ، يمكن الطعن في أي "حقيقة"، ويمكن لأي حكايةٍ أن تطالب بانتباهنا على أنها "الحقيقة"، هناك شكلٌ واحدٌ من الخيال على وجه الخصوص يحيط بنا باستمرار وهو ذلك الذي يسعى لتفرقتنا عن الحقيقة وعن بعضنا البعض، فنصبح منفصلين: البشر عن البشر والنساء عن الرجال والبشر عن الطبيعة.

ولكن كما نعيش في زمن الانقسام والتشرذم، فإننا نعيش أيضًا في زمن الحركة الهائلة، فالناس يتحركون أكثر من أي وقتٍ مضى في التاريخ، فتراهم يفرّون ويمشون ويسبحون إذا لزم الأمر، ويهاجرون إلى كافة أنحاء العالم، وهذه هي البداية فقط. والرد كما نعلم كان بإغلاق الحدود وبناء الجدران وبالصمت والعزلة. نحن نعيش في نظام عالميٍ مستبد، حيث اللامبالاة هي العملة والأمل هو البضائع المهرّبة، وجزء من هذا الطغيان هو السيطرة ليس على الفضاء فحسب، بل على الزمان أيضاً. فالزمن الذي نعيش فيه يتجنب الحاضر، ويركز على الماضي القريب والمستقبل القريب: أنا لا أملك هذا وسأشتري هذا.

الآن وقد اشتريته يجب أن أحصل على الشيء... التالي، تم طمس الماضي البعيد، ولا توجد عواقب للمستقبل.

هناك العديد ممن يقولون بأن المسرح لا ولن يستطيع تغيير أي شيء من هذا، ولكن المسرح باقٍ لن يذهب، لأن المسرح موقع، وأميل أن أقول أنه مأوى، يتجمّع فيه الناس ويشكّلون المجتمعات على الفور، كما فعلنا دائماً، كل المسارح تماثل في حجمها أحجام المجتمعات البشرية الأولى: من ٥٠ إلى ١٤,٠٠٠ نسمة، من قافلةٍ بدوية إلى ثلث أثينا القديمة.

ولأن المسرح موجودٌ في الحاضر فقط، فهو يتحدى هذه النظرة الكارثية للزمن، فاللحظة الحالية هي دائما موضوع المسرح، ويتم إنشاء معانيها في العمل المشترك بين الفنان والجمهور. ليس هنا فقط، بل الآن. فبدون تمثيل الفنان لا يستطع الجمهور التصديق، وبدون تصديق الجمهور لن يكون الأداء كاملاً، فنحن نضحك في نفس اللحظة وتتحرك مشاعرنا ونشهق أو نشعر بالصدمة إلى درجة الصمت، وفي تلك اللحظة من خلال الدراما نكتشف تلك الحقيقة الأكثر عمقاً: أن ما اعتقدناه أكثر الأشياء خصوصية في انفصالنا عن بعضنا البعض وهو حدود وعينا الفردي، هو أيضاً بلا حدود. إنه شيء نتقاسمه.

لا أحد يستطيع إيقافنا، سنعاود الظهور في كل ليلة، وسيعاود الجمهور والممثلون التجمع في كل ليلة، وسيتم تمثيل الدراما نفسها، لأنه كما يقول الكاتب جون بيرغر "في عمق طبيعة المسرح يوجد الإحساس بعودة الطقوس"، وهذا هو السبب في أن المسارح كانت دائمًا الشكل الفني للمحرومين، وهو -بسبب التفكك الحالي لعالمنا- حالنا جميعاً. حيثما يوجد الفنانون الأدائيون والجمهور سيتم تمثيل القصص التي لا يمكن سردها في أي مكان آخر، سواءً في دور الأوبرا والمسارح في مدننا الكبيرة، أو في المخيمات التي تأوي المهاجرين واللاجئين في شمال ليبيا وفي جميع أنحاء العالم، سنظل دائماً ملتزمين معاً بشكل جماعي بمعاودة تمثيل الحكايا.

ولو كنا في مسرح إبيداوروس الكبير يمكننا النظر إلى الأعلى ورؤية كيف نتشارك هذه اللحظة مع المناظر الطبيعية، وندرك أننا دائماً جزء من الطبيعة ولا يمكننا الهرب منها كما لا يمكننا الهرب من كوكبنا، ولو كنا في مسرح غلوب سنرى كيف يمكن طرح الأسئلة التي تبدو خاصةً

علينا جميعاً، ولو كانت لدينا فرصة حمل المزمار العظمي في برقة والذي يعود لـ ٤٠,٠٠٠ مضت، سنفهم أن الماضي والحاضر هنا لا يمكن تجزئتهما، وأن سلسلة المجتمع البشري لا يمكن أبداً كسرها من قبل الطغاة والديماغوجيون.

ترجمة: حصة الفلاسي

مركز الفجيرة للهيئة الدولية للمسرح – دولة الإمارات العربية المتحدة